الطفولة المشردة في مصر

لحضرة صاحب العزة الأستاذ وهيب دوس بك

المحامي وعضو مجلس الشيوخ

ليس منا من ينكر أن كل المشروعات والأعمال التي يقوم بها الرجال ويراد لها البقاء والدوام إنما مادتها الأولية هي الطفل. فطفل اليوم هو رجل المستقبل القريب. واذا أهملنا هذه المادة الأولية لكل ما يمكن أن ينتج في بلد من البلاد كنا مبددين لأكبر عناصر الثروة القومية التي يجب الالتفات اليها قبل الالتفات الى أي شيء آخر.

استيقظت مصر في السنوات الأخيرة، وكان من آثار هذه اليقظة إنشاء وزارة للشؤون الاجتماعية. استيقظت مصر لتستغل موارد ثروتها القومية، فسمعنا بمجهودات ضخمة تبذل في شأن استخراج الحديد من أسوان. ورأينا رجال الفن يجتمعون لبحث كهربة خزان أسوان، لأن الحديد سيجلب المال، والمال عصب الحياة القومية. ولأن كهربة الخزان ستنتج السماد، والسماد عماد الزراعة، والزراعة ثروة البلاد. وفي وسط هذا الضجيج وأمثاله أريق من المداد على صفحات الجرائد قدر غزير. وكنت أنتظر، وقد أهملنا أحوال الطفل سنوات عديدة، أن أسمع من يقول إن الثروة الأساسية في هذا البلد هي الطفولة، تلك الطفولة المعذبة التي نعرض في هذا المقال ما نراه دواء وعلاجا لأسقامها وآلامها. أين أقوال المصلحين، وأين أقوال من ينادون باستغلال الثروة القومية وهذا المنجم، منجم الذهب بين أيدينا نراه ينتهب انتهابا، ويسرق بين سمعنا وبصرنا بيدي المرض والجهل ؟

قد يكون من حسن الحظ أو سوئه أن أقرأ في صحيفة الأهرام وأنا أعد هذا البحث نبأ في ركن متواضع في أحد أنهار الصحيفة بعنوانه "خمسة من مائتين يستطيعون دفع خمسة عشر قرشا" إذ أن محكمة فاقوس حاكمت في يوم معين مائتين لأنهم أهملوا تقديم أولادهم للتعليم الإلزامي. ورأف القاضي بهؤلاء فحكم بالحد الادنى للغرامة وهو ١٥ قرشا فلم يستطع تأدية الغرامة الا خمسة من هؤلاء المائتين، وكان اعتذار الجميع للحكمة عن عدم إرسال أبنائهم للمكاتب الإلزامية هو حاجتهم الى أجر أبنائهم من عملهم في الحقل، ليستعينوا به على القوت!.

قد يكون مجرد مصادفة أن أقرأ هذا الخبر وأنا أتأهب لكتابة هذا الموضوع. ولكن كل من يحبون الريف يعلم أن هذه المأساة متكررة الوقوع فى اليوم الواحد وفى البلد الواحد عشرات المرات، ويعلم كيف يعيش هذا الطفل الوحيد المدلل على أبويه، والذى يملأ البيت بهجة وحبورا. ويعلم أن فى كل قرية ألف طفل ينتزعون من نومهم المبكر ليحملوا طعام الغداء الى آبائهم فى الحقول وهم لا يزالون فى الخامسة أو السادسة من أعمارهم. وقد تكون المسافة بين الدار والحقل كيلومترين أو ثلاثة أو أربعة، يقطعها الطفل الصغير الغض الجسم ذهابا ويقطع مثلها ايابا عند مايعود بالماشية الى الدار فى المساء. فأى إنهاك للبدن الناشئ ومحاربة لنموه وسلامته بعد ذلك ؟ وأية قسوة على الانسانية فوق هذه القسوة ؟

وأخيرا يسأل الآباء لمناسبة قضايا التعليم الالزامى — فيكون جوابهم أنهم فى حاجة الى أجر أولادهم ..

وإنى لأذكر حادثا وقع تحت نظرى فى أحد شوارع لندرة الكبرى حيث زحام المرور يكاد يزيغ البصر ويضل الفهم. كنت أمر على قدمى فوجدت رجل البوليس الانجليزى قد وقف المرور فى الشارع وإذا به يقطع الشارع عرضا وبيده طفل فى سن الرابعة أو الخامسة وهو يحنى قامته المديدة ليكلم الطفل عاطفا حانيا مواسيا، فعبرت الشارع الى الجندى بعد أن أتم مهمته الانسانية الكريمة، وقلت له : ياسيدى أنت عطلت الشارع. نعم كان يجب أن يمر هذا الطفل، وهذا جميل، ولكن كان يمكن أن تستبقيه معك حتى تهدأ حركة المرور. فضحك الرجل وقال ألا تدرى ياسيدى أن الثروة الحقيقية فى هذه البلاد هى هذه الطفولة ؟ من هؤلاء الأطفال سيخرج ولنجتون ودوبك وسمى ثلاثة أو أربعة من عظماء انجلترا الذين تدين لهم بمجدها الحالى — ذهب فكرى حالا وأنا فى الشارع المزدحم الى أن هذا صحيح عندنا أيضا. من أين جاء عبد الله فكرى ؟ وعلى مبارك ؟ والبقلى ؟ والفلكى ؟ وبقية رجال مصر الذين ساهموا فى تأسيس حضارتنا الحالية ؟ ألم يجيئوا من هذا الوسط ؟ ألم ينتزعوا انتزاعا من أوساط لا تعرف ؟ ألم يؤخذوا كما تؤخذ الجنود الى الميدان على الرغم من معارضة أهليهم، ثم أرسلوا قهرا ليتعلموا فنبغوا ونفعوا الوطن. هل يمكن أن يذكر التاريخ لكل العظماء والنوابغ آباء أو أجدادا نابهين خالدى الأسماء؟ أليست حضارة العالم تقوم الآن على تعاليم موسى وعيسى ومحمد ؟ هل كان أحد هؤلاء الثلاثة شيئا يذكر عند ما كان فى مرحلة الطفولة؟ ألم يكن أولهم لقيطا على الوصف الذى ورد فى التوراة ؟ ألم يكن ثانيهم فى حكم اللقيط ينتسب الى نجار؟ ألم يكن ثالثهم يتيما؟ أليس كل ماأوتوا من العظمة لم يجئ الا بعد أن ارتفعت بهم السن وبلغوا مبلغ الرجال؟ ألم يدل التاريخ فى كل عصوره وفى جميع الأمم على أن النبوغ يجىء كثيرا بين الطبقات التى لا يعترف لها بمكانة، وأن رجال التاريخ الذين غيروا وجهه والذين

أوجدوا أسسه قد نشأوا — إلا القليل النادر — من الطبقات الصغيرة ولمعوا فى سماء العبقرية بعد أن أمضوا طفولة لا تختلف كثيرا عن هؤلاء الصغار الذين نراهم فى الحقول وأمثالهم ممن تزدحم بهم حوارى قسم السيدة زينب والمناطق الوطنية ؟ كيف يغيب هذا عن رجال مصر وقد بدأنا عهدا يقارب عهد النهضة فى أوربا ؟

نعم لقد بدأنا عهدا اشتغلنا فيه بالمسائل العامة والثروة القومية. فكيف نهمل هذا الموضوع ولا يهتم به إلا النزر الضئيل من الكاتبين أو المتكلمين وفى طليعتهم شاعر النيل وشاعر الأخلاق والمروءة شوقى، الذى أراد فى إحدى آيات بيانه أن ينبه الى واجب رعاية الطفولة، ويحيى أصحاب الجهود الكريمة فى هذا الباب ، فبيّن أن هؤلاء الصغار هم عدة المستقبل وإن بدت على كثيرين منهم أمارات الضعف ، وجعلهم عدة المستقبل على زرايتهم وفقرهم وحالتهم الضعيفة، وها هو ذا يصفهم وهم خارجون من المدرسة يحملون معهم الكتب والدفاتر وحقائب الغداء :

وتلك الأواعى بأيمانهم حقائب فيها الغد المختبى
ففيها الذى إن يقم لا يعد من الناس أو يمض لا يحسب
وفيها اللواء وفيها المنار وفيها النبيع وفيها النبى
وفيها المؤخر خلف الزحام وفيها المقدّم فى الموكب

و بعد ، فهذه الطفولة التى تحمل فى ضعفها ثروة الوطن وعدة المستقبل، ماذا أعددنا لها من عمل أو تفكير ؟؟

لقد يسر القراء أن يعلموا أن الأمر ليس من الجسامة بالقدر الذى يدعو الى التشاؤم ، فهناك على أية حال عناية بالطفولة ، لكنها لم توجه توجيها موفقا .

إن أول معهد أقيم للعناية بالطفل أنشئ فى فبراير سنة ١٩١١ ولم ينشئه مصرى ولا مصرية بل أقامته سيدة خرجت من بلدها فى أمريكا قاصدة أسيوط هى " مس ليليان تراشر " ولم يعمر المعهد أول الأمر إلا بطفل يتيم واحد جاءت به أمه إليه فى فبراير سنة ١٩١١ فكان بداية تكوين لهذا المعهد .

أما الآن — أى فى فبراير سنة ١٩٤٠ — ففى ضيافة هذا المعهد نحو الثمانمائة، عدا أكثر من ألفى يتيم و يتيمة تربوا فيه خلال هذه الثلاثين عاما أى بمتوسط ٨٠ فى السنة . بدأ هذا العمل العظيم فى سنة ١٩١١ ، وفى الأقوال المأثورة إن أكبر تحية لعمل هى تقليده ، فلم تجد إدارة هذا المعهد هذه التحية منا إلا بعد ٢٠ سنة كاملة بحيث بدئ فى إنشاء معاهد

حكومية للطفولة . وسأذكر ما وقع تحت نظرى عند تشريف حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك لأسيوط منذ عام واحد :

كنت قد علمت وقرأت أن أحد سَراة المصريين من أصحاب الأريحية وهو السيد احمد عمرو باشا تبرع بإنشاء ملجأ ووقف للصرف عليه ٥٠٠ فدان من أجود الأطيان فأنشئ هذا الملجأ ، ولو وضعت المقارنة بينه وبين الملجأ القديم لتلاشى القديم خجلا ولزال من الوجود استحياء ، فالجديد بناء شامخ فيه النظام مستتب والتهوية التى لا ينالها كثير منا فى منازلهم ، ولكن هذا الملجأ الجديد الذى ترصد له ميزانية سنوية قدرها ٥٠٠٠ جنيه بلغنى وأنا فى أسيوط لمناسبة الزيارة الملكية الكريمة أنهم كانوا يتصيدون له بعضا من غلمان الشوارع لإكمال العدد حتى إذا زاره جلالة الملك رأى فيه عددا محترما من اللاجئين ، وبجانبه تماما هذا المعهد القديم تصيح صاحبته والمديرة له : ليس لدىّ ما أقوت به هؤلاء البؤساء فلا تجد أذنا تصغى لهذا الصياح — لقد حز فى نفسى وأثار ألمى وتجلى هذا المنظر وذاك ، وجعلت أفكر فعرفت أن العناية بالطفولة يجب أن تكون رسالة سامية ، ولا يمكن أن تكون عملا عاديا آليا كترتيب الدرجات للموظفين ودخول الساعة ٨ الى آخر تلك النظم الحكومية . وهأنذا أخاطب وزارة الشؤون الاجتماعية بواسطة مجلتها فأقول إننا فى الزمن الذى تطالب فيه القوانين أولئك الأطفال الذين بين الخامسة والعاشرة بأن يرضخوا للنظم الحكومية وللمعاهد الالزامية ، نقضى على معاهد الطفل اليتيم إذ نبخل على بعضها بالمعونة العادية ، ونقاطع البعض الآخر فلا نمده بالأطفال الأيتام الذين حرمتهم الأقدار من حضانة الآباء وحنان الأمهات ومن جو المنزل وإيناسه ومن سائر ما ينعم به الأطفال الآخرون .

كيف يمكن لهذا المحروم أن يربى وينام بين الضابط والمدرس وكلاهما لا يهمه قبل كل شىء إلا موعد انصرافه من المعهد الى داره وأسرته ، وكلاهما مشغول عن رعاية ضيوفه الأطفال بالإسراع الى مقابلة المدير ليرجو منه ألا ينساه عند اقتراح الترقيات أو تقرير العلاوات .

كيف يمكن لهذه المعاهد على هذا النظام — وعندنا منها الآن أكثر من خمسين — أن تؤدى رسالة العناية بالطفولة ؟ ذكرنى هذا بأننا عند ما كنا نقرأ عن مدارس الطفولة فى أوروبا ، كنا نجد الرياسة والإدارة دائما فى أيدى سيدات . لأن ما حبت به الطبيعة السيدة من عطف حتى على الغرباء ومرضى النفوس والمسجونين ومن رثاء لآلام المتألمين ، هذه الصفات — قبل المال وقبل كل شىء — هى التى ينتفع بها اليتيم والبائس ولا خير فى أن نعد للبؤساء السرر الفاخرة والتهوية الصحية دون أن تكون نفوس القوامين عليهم عامرة بالرحمة والحنان .

أترون أيها القراء كيف أن العطف الصادق وحب الخير قد استطاعا وحدهما أول الأمر وبغير مال وفير أن يتغلبا على جميع الصعوبات ، وأن يسيرا بذلك المعهد التاعس سيرا حثيثا نحو النجاح ؟

لقد بدأت السنة الماضية وفى المعهد ثمانمائة طفل يتربون ويطعمون ويكسون ويتعلمون. فهل تدرى ياسيدى القارئ كم كان رأس المال المدخر للانفاق منه على كل ذلك ؟ لاشيء! لا بل لقد كان المعهد مدينا بمائة وعشرين قرشا من حساب السنة التى قبلها .

وإنكم لترون مدير المعهد جادا فى تدبير حياة هؤلاء النزلاء البائسين، ولقد جمع لهم خمسة آلاف جنيه فطعموا واكتسوا وتخرج منهم من تخرج، ونال عدد منهم شهادات نافعة، وبعد هـذا كله ينتهى العام بعجز جنيهين ونبدأ عاما جديدا . هذه هى الروح العاطفة التى يسير عليها ذلك المعهد الأجنبى . أما فى معاهدنا الخمسين فقد جرينا على أن المدرسين ورعاة الطفولة لا ينظرون الى عملهم الا كموظفين تعنيهم الدرجات والعلاوات والإجازات وبدل السفر قبل أن تعنيهم الرسالة الانسانية السامية : رسالة البر بالطفولة والرأفة بالمنكوبين .

كنت ولا أزال أرجو أنه اذا استيقظت الضمائر ولانت القلوب وتفتحت العقول تسير هذه المعاهد سيرة أمثالها عند الأجانب ، فتصان لنا هذه الثروة النافعة - ثروتنا من الطفولة - ولا نظل نفقدها يوما بعد يوم . ولعمرى ليس أعون على ذلك من أن نكل الى السيدات المثقفات الرحيمات مهمة العناية بالأطفال فى هذه المرحلة من أعمارهم ، فان جميع مدارس الأطفال فى البلاد التى سبقتنا خطوات فى سبيل هـذه المشاكل الاجتماعية تديرها السيدات وجميع المدرسين للأولاد والبنات من سن الخامسة الى الثانية عشرة هم من السيدات . لأن التجارب التى سبقنا إليها هؤلاء الأقوام دلت على أن الطفل فى هـذه السن الباكرة لا يفهم إلا من سيدة ، هذا الطفل الذى اذا ترك المعهد كان عادة بين أحضان أمه وأخته ، فما بالكم بمن حرم حتى من هذا فكان يتيما محروما ليس له أم أو أخت تعنى به . إنه لفى أشد الحاجة الى سيدة تعيره ما فقد من عطف الأمومة ورقتها .

نعم إنى أرجو أن يستيقظ فى الجمهور المثقف الذى يقرأ الصحف والمجلات فيهتم بهـذا الشأن لا أن يخرج من كل ما يقرأ بالثناء على الكاتب أو بانتقاصه . فاننا إذا جرينا وراء استنباط الحديد من أسوان والكهرباء من الخزان وإصلاح الأراضى البور وكان هذا كل ما نعنى به بكفاءة ، فنحن سفهاء مبددون . لأن عماد الثروة الأولى والمادة الأولية للأجيال المقبلة هى هؤلاء الأطفال ونحن مهملون فى شؤونهم إهمالا يكاد يجعلنا فى حكم الجناة . جميل جدا أن أرى وزارة الشؤون الاجتماعية تعنى بأن توفر للفلاح الماء الصالح للشرب لتدفع عنه جراثيم الأمراض والأوبئة ، وان كان الفلاح قد خلق وعاش قوى البنية متمتعا بمناعة ضد الحر والبرد والجوع والظمأ ، متمردا على قواعد الطب بل على نظام الطبيعة . لكن هل فكرت وزارة الشؤون الاجتماعية فى نفس الوقت فى طريقة التعليم الالزامى، وكيف يحشد

الأولاد فى هذه القاعة التى يقوم فيها المكتب أو المدرسة ؟ وكيف يزدحمون فى الفصل الضيق وبينهم من المرضى بالأمراض المعدية عدد غير قليل ؟

إن بين قراء هذه المجلة وجهاء وأصحاب أملاك فى بلاد الريف يعرفون حالة هذه المدارس الالزامية وكيف أن الاجتماع الذى يتم فى قاعتها بين الأطفال هو مصدر خطر يزيد عشرات الاضعاف على خطر الاستقاء من ماء غير مرشح أو غير نقى .

أنا لا أقول إن هذا معناه أن نهمل ما تم أو ما شرع فيه . ولكن إذا كان لابد من تفضيل أمر على أمر فخير لنا أن نبدأ من هذا الأساس .

طفولة مصر الآن هى طفولة مقضى عليها بألا تخرج لنا رجلا صحيحا واحدا . لأن الأمراض الاجتماعية والاقتصادية التى تفعل فعلها فى الرجال ، لها فى أطفالنا أثر أشد وأنكى، أضف الى هذا أثر ضيق الرزق وسوء الحالة الاجتماعية عند الآباء .

يحلو لى ان أكرر أن أطفالنا هم المادة الأولية لحياتنا كلها ، هم مادة الجيش وهم مادة المدرسة ومادة الدواوين ووظائفها ، أو هم الخامات التى نعتمد عليها فى بناء البلد. من منا رفع صوتا أو حرك قلما للدفاع عنها ؟ كل ما عمل ورويت طرفا منه لكم هو إنشاء معاهد عدمها خير من وجودها ، لأنه لم يفكر أحد فيما تدعو اليه الحال من صنوف العناية الواجبة للطفل، فساءت الحالة الى الحد الذى تبينه جريدة الاهرام حين تروى لنا أن مائتى طفل لم يرسلوا الى المدرسة الالزامية لاحتياج أهلهم الى أجر عملهم فى الحقول، ولو نالت هذه المعاهد قليلا من العناية والخدمة والنظام لوجدنا الطفل يهرب من بيت والديه ليذهب الى المدرسه .

أما والحال هكذا فالطفل يفضل الهرب من المدرسة ليحمل الطعام الى والده على بعد أميال فهو على الأقل يتمتع بالخضرة الجميلة والهواء الطلق ويسمع تغريد الطيور مما لا يتوافر له فى قاعات المكاتب الأولية . ليس للقوام على المكاتب وقت للتفكير فى شؤون هذه المعاهد الثمينة التى نودعها هؤلاء الأطفال ومهما قيل فى فوائد إنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية فإنى أرى أن من أول واجباتها أن تتصل بضمائر الموسرين وأن تعمل على إيقاظ تلك الضمائر وتبث فيها الحدب على الطفل الضعيف والرثاء له وبذل المال فى سبيل تربيته وتكوين جسمه وعقله أحسن تكوين .

ولا أختم كلامى قبل أن أعود الى ضرب المثلين البارزين اللذين يبينان أثر العناية فى حسن تنشئة الأطفال ، ثم أثر التفريط والاهمال ويكشف عن شىء من ضعف تقديرنا لأعمال البر ، ولجهود العاملين .

ففى المعهد الذى اتخذته أنموذجا لمعاهدنا فى أسيوط : ٨٠٠ نزيل بعد ٣٠ سنة من إنشائه ويقابله معهد مثله يحتوى على ستين طفلا فقط وميزانيته فى السنة ٥٠٠٠ جنيه أى أن اليتيم الواحد يتكلف ما بين ثمانين جنيها وتسعين أى نحو ثمانية جنيهات فى الشهر ، على حين أن المعهد الأول القديم الكبير العدد لم يخصص له فى ميزانيـة مجلس المديرية إلا أربعة جنيهات فى الشهر تخصم منهـا الدمغة ، فنحن نسخو على معهد قليل الإنتاج ونضن على معهد راسخ ناضج الثمرات . فهل يمكن مع هذه المقارنة المؤلمة أن ندعى لبلادنا أنها استيقظت وبلغت من الاصلاح الاجتماعى مبلغا محمودا ؟ !

وهل لى أن أسأل المشتغلين بالاصلاح الاجتماعى من حكوميين وشعبيين أين الحدائق التى خصصت لأطفال المـدن الكبرى كالقاهرة والاسكندرية ؟ فاذا لم نطالب بحدائق لأن الحياة كثيرة التكاليف ومصلحة التنظيم تسوف وتبخل ، فهل لنـا أن نسأل أين الميادين الفسيحة التى جعلت للأطفال يلعبون فيها ويتعون نفوسهم المرحة ؟

مر فى أى حارة من حارات السيدة زينب أو الخليج المصرى أو تحت الربع تجد أن هذه الطرقات مهملة مملوءة بالأقذار والأطفال يترغون فيهـا . ولا حيلة فى ذلك ، فالطفولة لا بد لها من المرح ومن اللعب . لهذا كثر عدد فاقدى البصر فى مصر ، ولهذا كثرت نسبة الوفيات بين الأطفال ، وخسارة المجتمع فادحة بين أولئك وهؤلاء ، وما أحرانا بأن نحتفظ بأطفالنا هؤلاء إذ هم رأس مال ضخم لنا ولو نبغ واحد من كل ألف لكان ربحا للوطن ما

وهيب دوس